المنهج البياني في تفسير القران

م.م.سناء عليوي عبد السادة
جامعة بغداد / كلية التربية – ابن رشد

المقدمة :

الحمد لله الذي جعل الحمد مفتاحاً لذكره وسبباً للمزيد من فضله ودليلاً على آلائه وعظمته والذي جعل القرآن نور البشرية به تستنير طريقها وتسعد .

أما بعد فقد تعددت الدراسات التفسيرية للقرآن الكريم بتعدد مناهج المفسرين فمنهم من فسر القرآن لغوياً ومنهم من فسره فقهياً ومنهم من فسره عقلياً وغيرها من التفاسير بحسب علم المفسر وثقافته . والمنهج البياني في تفسير القرآن هو أحد هذه الانواع ويندرج تحت التفسير اللغوي والنحوي لأن مباحثه تدور حول بلاغة القرآن في صوره البيانية من تشبيه وأستعاره وكناية وتمثيل ووصل وفصل وما يتفرع من ذلك من أستعمال حقيقي أو مجازي أو أستدراك لفظي أو أستجلاء للصورة أو تقويم للبنية أو تحقيق للعلاقات اللفظية والمعنوية أو كشف للدلالات الحالية والمقالية ، والبحث في هذا الجانب يُعد بحثاً اصيلاً في جوهر الإعجاز القرآني ومؤشراً دقيقاً في معرفة البلاغة القرآنية.

وكذلك عُني المنهج البياني بالجانب اللغوي والبحث في اشتقاق المفردات وجذورها وشكل الألفاظ واصولها فجاء مزيجاً بين اللغة والنحو والبلاغة، وكان مضمار في الكشف والابانة استعمالات العرب وشواهد بيانهم. فابتنى الاصل اللغوي بكثير من ابعاده على الغريب والمشكل والشوارد في الالفاظ والكلمات والمشتقات وقد سخرت بهذه اللغة العربية طاقاتها المتعددة لخدمة القرآن الكريم . وقد تأثر في هذا الجانب

المتخصصون والعلماء والباحثون فشكلوا مدرسة خاصة بهم تميزت ابعادها في البحث عن لغة القرآن واعجاز القرآن وغريب القرآن ومعاني القرآن ومفردات القرآن. فالمنهج البياني هو أحد فروع المنهج اللغوي لا ينفصل عنه وكلاهما متمم للاخر من ضمن المدرسة التأويلية. وقد كانت دراستي في هذا البحث على ثلاث مباحث .

أولاً: بينت في المبحث الاول التعريف اللغوي والاصطلاحي للمنهج البياني في تفسير القرآن وبينت في الثاني التفسير البياني في عصر النبوة وبينت في الثالث التفسير البياني بعد عصر النبوة .

المبحث الأول : التعريف اللغوي والاصطلاحي للمنهج البياني في تفسير القرآن

المنهج لغة واصطلاحاً:

المنهج الطريق الواضح، كالمنهج والمنهاج، وتتابع النفس والفعل: كفرح وضرب ، وانهج وضح وا وضح ونهج الدابة: سار عليها، ونهج الثوب، أخلقه، ونهج: وضح ونهج الطريق: سلكه: واستنهج الطريق: صار نهجاً، ونهج فلان سبيل فلان: سلك مسلكه. والمنهج في الاصطلاح هو الطريق الواضح المسلوك من قبل [١]

البيان لغة واصطلاحاً:

والبيان عند الراغب الاصبهاني الكشف عن الشيء[٢] وعند ابن منظور البيان ما بين به الشيء من الدلالة وغيرها. وبان الشيء بياناً، اتضح. وتبين الشيء ظهروالتبين الايضاح و الوضوح. والبيان الفصاحة واللسن، وكلام بين فصيح والبيان الافصاح مع ذكاء، والبين من الرجال: الفصيح.والبيان اظهار المقصود بابلغ لفظٍ، وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللسن واصله الكشف والظهور.[٣] والبيان يطلق ايضاً على

---

(١)القاموس المحيط/ مادة (نهج) ٢٦٦/٢ وانظر تطور تفسير القران الكريم د . محسن عبد الحميد ص ٥٢

(٢) المفردات في غريب القرآن/٦٩ انظر لسان العرب /٦٧/١٣ مادة نهج .

(٣) لسان العرب ٢١٤/١٦ وانظر أصول البيان العربي ص ١٥ .

الافهام للغير والتعبير[١]ويطلق ايضاً على التبليغ[٢]. كما في قوله تعالى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ)[٣]وكذلك ابان الشيء فهو مبين وبان الشيء اتضح فهو بين والجمع ابيناء[٤] .

والبيان في الاصطلاح هو الفصاحة واللسن وقد ورد الحديث النبوي الشريف بذلك إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم (ان من البيان لسحراً)[٥] وننتهي من هذا الى امرين:

الاول: ان البيان هو الكشف والايضاح واظهار المقصود بابلغ لفظٍ .

الثاني: هو سماحة اللسان وعلو الكلام وذكاء القلب.

التفسير لغة واصطلاحاً:

والتفسير في اللغة: مأخوذ من الفسر والفسر بيان الشيء وايضاحه[٦]. أو الابانة وكشف المغطى.[٧] يقال فسر الشيء يفسره بالكسر والضم ابانه [٨] والفسر والتفسير: نظر الطيب الى الماء وحكمه فيه.[٩] فالتفسير اذاً راجع الى معنى الاظهار والكشف والبيان، قال تعالى (وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً) [١٠] أي

(١) الكليات: ٩٩ وانظر كشاف اصطلاحات الفنون .

(٢) الفروق اللغوية /٤٧-٤٨

(٣) إبراهيم/٤

(٤) الصحاح: جـ٥ / ٢٠٨٣ مادة (بين)

(٥) أنظر صحيح البخاري جـ٥١/١

(٦) معجم مقياس اللغة :٥٠٤/٤ ينظر التفسير نشأته تدرجه تطوره/٢٠

(٧) القاموس المحيط: ١١٤/٢

(٨) لسان العرب:٣٦١/٦

(٩) معجم مقاييس اللغة:٥٠٤/٤، وانظر لسان العرب:٥٥/٥، والصحاح:٧٨١/٢، والقاموس المحيط:١١٤/٢

(١٠) الفرقان/٣٣.

بياناً. والتفسير من معاني العبادات التي يعبر بها عن الاشياء كما قاله اهل اللغة مثل التأويل والمعنى.[١] فيقال: استفسرته كذا: أي سألته أن يفسرهُ لي.[٢]

والتفسير في الاصطلاح:

للتفسير اصطلاحاً عدة تعاريف منها:

انه علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها واحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب.[٣]

ومنها: انه علم يعرف به فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وبيان معانيه، واستخراج احكامه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان واصول الفقه والقراءات[٤]ومنها انه معرفة اصول كلام الله سبحانه وتعالى من حيث القرآنية ومن حيث دلالته على ما يعلم أو يظن انه مراد الله بقدر الطاقة البشرية.[٥]وهناك تعاريف اخرى قريبة من هذه التعاريف [٦] تركناها خشية الاطالة، وقد اختار بعض العلماء التعريف الاخير وقدمه على من سواه وسبب اختياره:
وهذا يتناول اقسام البيان بأسرها ولايرد عليه ما يرد على سائر الحدود.[٧]

المبحث الثاني :التفسير البياني في عصر النبوة

القرآن الكريم هو المعجزة البيانية الخالدة الذي أسر قلوب الكفار وبدل كفرهم إيماناً برسالة محمد (ص) ، بالرغم من أنه نزل على قوم هم أهل البيان والفصاحة إلا انه تحداهم ولم يستطيعوا ان يأتوا ولو بآية من مثله ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب (

(١) لسان العرب: ٥٥/٥ وانظر البرهان: ١٤٦/٢
(٢) الصحاح: ٧٨١/٢ ينظر الفروق اللغوية /٤٣
(٣) لسان العرب:٥٥/١ و انظر البرهان: ١٤٦/٢
(٤) البرهان:١٣/١ ينظر التفسير نشأته تدرجه تطوره/٢١
(٥) كشف الظنون/٤٢٨، وفتح البيان:٨/١
(٦) البرهان:١٤٨/٢،الاتقان:١٦٩/٤
(٧) فتح البيان: ٨/١ وتاريخ التفسير/١٨

رض)يقع اسيراً للبيان القرآني وكان ذاهباً ليفتاك من أهل بيته فاذا آيات كريمة من سورة طه تنسخ وجوده وتبدل كفره تسليماً وايماناً.[١]وان مصعب بن عمير رضي الله عنه فتح يثرب بالقرآن. فأنه لما كان هذا البيان العظيم وهذه القدرة الهائلة التي وضعها الله في هذا الكتاب العظيم ادركنا ما يحدث في النفوس من شعور بالجمال والانبهار والجلال لمعاني القرآن ومحاولة كشف اسراره والاهتداء بهديه وهذه لا تكون الا اذا تعرفنا لفظه، وادركنا خصائصه البيانية فالمسلمون في بادىء الامر لم يكونوا ليحتاجوا الى تفسير مفصل لان اللغة لغتهم بقوتها واصلاتها ودقتها وصفائها، والقرآن خاطب فطرتهم السليمة بهذه اللغة في ارقى اساليبها ولكن ثمة تفاوتاً في القدرة على التلقي . وهذا موجود في كل الازمنة، لان الناس متفاوتون في الذكاء والاستيعاب لا لان الاسلوب البياني ذو إيحاءات متعددة وظلال كثيرة يختلف في تبينها وتذوقها فرد عن اخر بل لان هذا الاسلوب القرآني من لدن حكيم خبير، يجد فيه كل امرىء ما يغنيه، ولكن كل امرىء لايصل الى كل ما فيه.[٢]وبذور هذا النمط من التحليل البياني ترجع الى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد اورد الامام البخاري في صحيحه (باب التفسير) يوضح لنا اجابات رسول الله صلى الله عليه وسلم للصحابة عن تفسيره لبعض الآيات التي اشكل عليهم معرفة معناها لا نهم كانوا لا يقرأون ولا يحفظون الا بعد ان فهموا ما نزل الله.والشواهد على ذلك كثيرة روى الامام احمد بسنده عن سيدنا علي بن ابي طالب رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)[٣] وتجعلون رزقكم يقول شكركم انكم تكذبون.[٤]فسر الرسول محمد صلى الله عليه وسلم الرزق بالشكر.[٥] وان استعمال الرزق بمعنى الشكر هنا جاء مجازاً مرسلاً

(١) السيرة النبوية: جـ١/٣٤٢

(٢) انظر مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٩ .

(٣) الواقعة/٨٢

(٤) انظر تفسير ابن كثير: ج٤/٢٩٨ وانظر تطور تفسير القرآن ص ٥٢ .

(٥) انظر خطوات التفسير البياني /١٣

باب السبب والمسبب لان النعم التي انعم الله تعالى بها مفردها في سورة الواقعة قبل هذه الآية، لا بد ان تكون سبباً يرفع العباد الى الشكر.[١]اذ يقول: (أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُون أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ .. أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ.. أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ.. أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا..؟.

وسأل رجل الرسول صلى الله عليه وسلم أرأيت قول الله تعالى (كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ)[٢] فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: اليهود والنصارى، فقال الرجل: الذين جعلوا القرآن عضين، ما عضين؟ فقال محمد الرسول صلى الله عليه وسلم. آمنوا ببعض وكفروا ببعض.[٣]

وعندما سأل عدي بن حاتم رضى الله عنه عن معنى قوله تعالى (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)[٤] عن معنى الخيطين. أهما الخيطان المعروفان؟ فرد عليه الصلاة والسلام قائلاً: بل هما سواد الليل وبياض النهار، منتقلاً بالمعنى من الحقيقة الى المجاز.[٥]وما رواه ابن عباس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن قوله تعالى (لَتَرْكَبُنَّ طَبَقاً عَنْ طَبَقٍ).[٦] قال أي حالاً بعد حال على سبيل المجاز أيضاً.

هذا وامثاله شيء كثير نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يبين لاصحابه ما غمض من بعض الآيات التي كانت تُشكل على بعض منهم. وهي تثبيت بالدليل الملموس والقاطع للذوق الرفيع الذي كان يملكه رسول الله محمد الله صلى الله عليه

(١) تطور تفسير القرآن قراءة جديدة/٥٣.
(٢) الحجر/٨٩
(٣) الاتقان:ج١٩٨/٢
(٤) البقرة/١٨٦
(٥) تطور تفسير القرآن /٥٣
(٦) الانشقاق/١٨ صحيح البخاري: م٢/ج٢٠٨/٨

وسلم، كيف لا وهو الذي نُزل عليه الذكر وشرح الله صدره وفتح عقله وكيانه لادراك معانيه.

وقد مضى صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على هذا النمط من الذوق والعلم الرفيع، وبعداً عن القول في كتاب الله بغير علم مع التنبيه للمعنى المجازي، وكان الصحابة الكرام (رضي الله عنهم) يدركون خصائص لغتهم في التعبير وكان لهم من الذوق ان يستوعبوا التعابير القرآنية وما ترمي اليه من اغراض سواء كانت بلاغية بيانية أو لغوية بحته والروايات تدل على ذلك، عندما سأل عمر رضي الله عنه اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معنى قوله تعالى (أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ)[1]فيم ترون هذه الآية نزلت؟ قالوا: الله اعلم فغضب عمر رضي الله عنه فقال: قولوا نعلم، أو لانعلم. فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين.قال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك قال ابن عباس ضربت مثلاً لعمل.قال عمر: أي عمل، قال ابن عباس: لعمل، قال عمر لرجل يعمل بطاعة الله عز وجل، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي حتى اغرق اعماله.[2]أي انه اوصلها الى اقرب دلالة حتى يفهمها ويفهمها لهم. وقال مجاهد (ذَاتِ الرَّجْعِ)[3]سحاب يرجع بالمطر و (ذَاتِ الصَّدْعِ)[4]تتصدع بالنبات.[5]ونلاحظ انه مجرد ايضاح لغوي دون اغراق في التأويل والتفسير وفي بعض الاحيان يلجأ الى المجاز مثل تفسيره لقوله تعالى: (وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ)[6]تفسيرها انها

(١) البقرة/٢٦٦
(٢) صحيح البخاري:م٢/ج٦/٢٩
(٣) الطارق /١١
(٤) الطارق/١٢
(٥) صحيح البخاري:م٢/ج٨/٢٠٨
(٦) المسد/٥

تمشي بالنميمة فلقد اخرج ابن ابي شيبة أن عمر رضي الله عنه لما نزلت الآية (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلامَ دِيناً)[١]فبكى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما يبكيك؟ قال ابكاني انا كنا في زيادة من ديننا فاما اذا اكمل فإنه لم يكمل شيء قط إلا نقص فقال عليه الصلاة والسلام صدقت.[٢] وهذا حديث واضح عن الكناية على الرغم من عدم ذكرها صريحاً في الكلام أي كان عمر رضي الله عنه قال: ان الآية كناية عن انتهاء اجل رسول الله صلى الله عليه وسلم.[٣]ولعل الروعة الدينية لهذا العهد، والمستوى العقلي لأهله... كل اولئك جعلهم لا يقولون في تفسير القران الا التوفيقي الذي نقل اليهم، وروي عن صاحب الرسالة،[٤] وهذا ما بينه جواب ابي بكر الصديق رضي الله عنه حين سُئل عن معنى (الاب) في قوله تعالى: (وَفَاكِهَةً وَأَبّاً)[٥]فقال قولته المشهورة أي سماء تظلني، واي ارض تقلني اذا قلت في كتاب الله ما لاعلم لي به.[٦] وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم حيث التفسير اخذ منحى اخر وهو الرأي بعد الأخذ بالقرآن والسنة والشورى لان المفسر الاعظم انتقل الى ربه حيث لايوجد نص بعد رسول الله.

واستعان ابن عباس بالشعر على معرفة معنى اللفظ القرآني وروي عنه انه قال: الشعر ديوان العرب فاذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي انزله الله بلغة العرب رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه[٧]وان ما اورد السيوطي من مسائل نافع ابن الازرق[٨] دليل على ان ابن عباس رضي الله عنه قد احاط بشعر العرب واستعان به في

(١) المائدة/٣

(٢) روح المعاني /٦٠/٦ انظر تطور تفسير القرآن ،/٥٣-٥٤ .

(٣) تطور التفسير القرآني /٥٤.

(٤) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب/٢٧٣.

(٥) عبس/٣١

(٦) تفسير جزء عم/١٨

(٧) الاتقان: ج١/١٩٩ .

(٨) الاتقان:ج١/٢٠١

تفسيره للآيات التي اشكلت عليه. وان تفسيره انما هو على سبيل الشرح والتقريب الذي لا سبيل الى سواه في البيان المعجز.(١)

المبحث الثالث : التفسير البياني بعد عصر الصحابة

وبعد عصر الصحابة والتابعين وجد المنهج اللغوي وخاصة بعد الفتوح الاسلامية ودخول غير المسلمين من خارج الجزيرة في دين الاسلام وظهرت العجمة واللحن في القراءات، قام أهل اللغة بحفظ لغة القرآن من خلال جمع اللغة واشعار العرب وحفظ المعرب والاصيل لتفهم القراءات القرآنية وقد سار التفسير في طريقتين.

تفسير نقلي: منقول عن السلف وهي معرفة مقاصد الآية واسباب النزول والناسخ والمنسوخ ولا يقبل الا بالاخذ عن الصحابة وهو التخرج من القول في القرآن على نحو ما يروى عن رجال من الصدر الاول ومن تلاهم.(٢)

أما الطريق الثاني المقابل فهو يرجع الى اللغة والاعراب والبلاغة ويذكرون ان في فهم معاني القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً وان المنقول من ظاهر التفسير ليس منتهى الادراك فيه(٣)وهو ما يطلق عليه المنهج التأويلي. وفي العصر العباسي اخذ ابن جرير الطبري(٣١٠هـ) منهجاً في التفسير القرآني حافلاً باراء في اللغة والفقه والتاريخ والنحو والقراءات ثرياً باشعار من الجاهلية والاسلام.(٤)

ان شخصية ابن جرير الطبري الادبية والعلمية تجعل كتابه مرجعاً غير قليل الاهمية في تفسير فترجيحاته للمعاني المختلفة تقوم على نظرات ادبية ولغوية وعلمية قيمة.(٥)وابن جرير يعبر عن الاتجاه الصحيح للتفسير البياني الذي يعني بهذا الاسلوب المعجز من حيث فهم القرآن وتعاليمه . ويتسم هذا العصر بظهور بوادر التفسير بالرأي

---

(١) من اسرار العربية في البيان القرآني /٦٣ .

(٢) مقدمة في اصول التفسير /٢١ ينظر التفسير نشأته تدرجه تطوره /٤٢ .

(٣) التفسير نشأته تدرجه تطوره/٤٣ .

(٤) اعلام العرب- الطبري- /١٧٧ .

(٥) مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والاداب/٢٨٠

مع اتساع العلوم وتفرع المعارف وتطور الدراسات اللغوية والبيانية بعد ان صار اللسان وعلومه صناعة.[١] واختص كثير من العلماء بهذه الدراسات فقاموا بتفسير القرآن معتمدين على مناهجهم العلمية في اللغة وغيرها، مستخدمين تعليل الالفاظ العربية والاستطراد في ذكر المسائل النحوية واللغوية فقام بهذه المحاولة بعض أئمة النحو والبيان كأبي زكريا الفرّاء[٢] في كتابه (معاني القرآن) وابن قتيبة.[٣] في (غريب القرآن) و (مشكل القرآن). واخذ بعضهم يعرض توجيه الاقوال المروية وترجيح بعضها على بعض وذكر وجوه الاعراب والبلاغة والبيان وكما فعل الجاحظ في نظم القرآن.[٤] ثم مجيء عبد القاهر الجرجاني ت (٤٧١هـ) وكان من المفسرين الذين التفتوا الى جانب بياني بلاغي مهم جداً وهو نظرية (النظم) وقد عاب على المفسرين الذين توهموا في الالفاظ الموضوعية على المجاز والتمثيل وحكموا عليها بالظاهر تاركين البلاغة ومكانة الشرف فيرد عليهم في كتابه الدلائل يقول فالعرب اعجزتهم مزايا ظهرت لهم في نظمه، وخصائص صادقوها في سياق لفظه وبدائع براعتهم من مبادىء آيه ومقاطعها، ومجازي الفاظها ومواقعها وفي مضرب كل مثل، ومساق كل خير... وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة، وعشراً عشراً وآية آية فلم يجدوا في الجميع كلمة ينسبو بها مكانها ولفظه ينكر شأنها، أو يرى أن غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أحرى أو أخلق، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول، وأعجز الجمهور.[٥] وهو لم يجرد اللفظ عن معناه ذلك قوله: لما كانت المعاني انما تتبين بالالفاظ، وكان لاسبيل للمرتب لها، والجامع شملها الى أن يعلمك ما صنع في ترتيبها بفكره الا بترتيب الالفاظ في نطقه.[٦] والفصاحة دون اللفظ في المعنى لان المزية

(١) مقدمة ابن خلدون ٩٩٨/٣ .
(٢) التفسير ماهية وضوابطه/٤٥ .
(٣) المصدر نفسه /٤٥ .
(٤) اثر القران في تطوير النقد العربي/٣٤
(٥) دلائل الاعجاز/٣٢
(٦) المصدر نفسه /٥٠

التي من اجلها يستحق لفظ الوصف بأنه فصيح عائد في الحقيقة الى معناه.[١] وبهذا يربط عبد القاهر بين علمي المعاني والبيان ربطاً محكماً دون الاستغراق في التأويلات كما مثل لذلك في قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً).[٢] ألا ترى أنه إن قُدِرَ في (اشتعل) من قوله تعالى: (وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً) إلا يكون (الرأس) فاعلاً له ويكون (شيباً) منصوباً عنه على التمييز، لم يتصور ان يكون مستعاراً وهكذا السبيل في نظائر الاستعارة.[٣]

والجرجاني يحلل الآية تحليلاً بيانياً موضحاً أسس نظريته في النظم في قوله تعالى: (وَقِيلَ يَا أَرْضُ ابْلَعِي مَاءَكِ وَيَا سَمَاءُ أَقْلِعِي وَغِيضَ الْمَاءُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَاسْتَوَتْ عَلَى الْجُودِيِّ وَقِيلَ بُعْداً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)[٤]أن شككت فتأمل هل ترى لفظه منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت، لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي مكانها من الآية قال (ابلعي) واعتبرها وحدها من غير ان ينظر الى ما قبلها والى ما بعدها وكذلك فاعتبر سائر ما يليها، وكيف الشك في ذلك ومعلوم ان مبدأ العظمة في أن نوديت الارض ثم امرت ثم بين ان كان النداء (بيا) دون –أي– نحو يأأيتها الارض وامرها بما هو شأنها، نداء السماء وامرها كذلك بما يخصها... وتحضرك عند تصورها هيبة، وتحيط بالنفس من اقطارها تعلقاً باللفظ من حيث هو صوت مسموع وحروف تتوالى في انطق ام كل ذلك لما بين معاني الالفاظ من الاتساق العجيب.

فقد اتضح إذن اتضاحاً لا يدعو للشك مجالاً أن الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي الفاظ مجردة ولا من حيث هي كلمة مفردة، وان الألفاظ تثبت لها الفضيلة وخلافها في ملائمة معنى اللفظ لمعنى الذي يليها أو ما أشبه ذلك مما لا تعلق له بصريح

(١) المصدر نفسه /٣٠٦

(٢) مريم/٤

(٣) دلائل الإعجاز /٢٠٠-٢٠١ .

(٤) هود/٤٤ .

اللفظ.[١]ولم تكن نظرية النظم قبل الجرجاني قائمة على ملاحظات عابرة بل قامت على دراسات دقيقة واضحة وقد طبقها في بعض الاحيان الامام الخطابي والباقلاني والقاضي عبد الجبار ولكنها لم تكتمل الاّ على يد الامام عبد القاهر الجرجاني وهذا ما ذهب إليه شوقي ضيف وتابعه الأستاذ الدكتور محسن عبد الحميد في كتابه تطور تفسير القرآن قراءة جديدة.[٢] جميع هذه الدراسات البيانية المتنوعة التي أتصلت بالتفسير أو بكتب الأعجاز القرآني رسمت الملامح النهائية للتفسير البياني الشامل من حيث هو أحد المناهج التفسيرية للقرآن الكريم أخذ حظهُ من الدراسة والوقوف من بين المدارس التي عالجت التفسير من خلال نظرية النظم وخاصة تفسير الكشاف للزمخشري الذي يمثل تراث المعتزلة البياني وتفسير مفاتيح الغيب للفخر الرازي.[٣]

اما الجانب البياني في تفسير الكشاف قائم على التراث البياني لعلماء بلغاء راسخون في العلم مسلمون وقد فتحت هذه النظرية افاقاً مغلقة لمن تعاطى التفسير البياني وبيان الوجه البلاغي من كل تراكيب القرآن المعجزة.[٤]

كان لتطبيقات الزمخشري وعلمه واسلوبه وذوقه الادبي والنقدي واضحاً في تفسيره، لان التطبيق كان يقوم أساساً على تحليل التركيب القرآني وبيان خصائصه والنفوذ الى نسيج اسلوبه والغوص في دقائق معانيه وذلك من اجل اظهار جمال النظم القرآني المعجز.[٥]ان تطبيق الزمخشري لنظرية النظم كان تطبيقاً عالياً في الابداع مع الوعي والمقدرة التي استطاع ان يثبت بنظريته اعجاز القرآن البياني وقد قدم للبلاغة العربية خدمة عظيمة عندما حول نظرية النظم الى واقع قرآني ملموس.[٦]

---

(١) دلائل الاعجاز /٨٩-٩٠ وانظر تطور تفسير القران /٦٨

(٢) البلاغة تطور وتاريخ/١٨٩ ينظر تطور تفسير القرآن قراءة جديدة /٦٩ .

(٣) انظر تطور تفسير القرآن /٧٠ .

(٤) انظر المصدر نفسه /٧١ .

(٥) تطوير تفسير القرآن /٧١ .

(٦) البلاغة تطور وتاريخ /٢٤٣ ينظر تطور تفسير القرآن قراءة جديدة /٧٣ .

ولذا يعد كشاف الزمخشري اقرب التفاسير القديمة الى المنهج البياني لانه يعني عناية كبيرة بالأسرار الجمالية ومن الأمثلة على ذلك ما جاء في كشافه في تفسير قوله تعالى: (ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[١]معنى أمر السماء والأرض بالإتيان وامتثالهما انه اراد تكوينهما، فلم يمتنعا عليه ووجدتا كما أرادهما، وكانتا في ذلك كالمأمور المطيع، إذا ورد عليه فعل الأمر المطاع، وهو من المجاز الذي يسمى التمثيل.[٢] ثم ياتي الإمام فخر الدين الرازي الذي كان من أهداف تفسيره تطبيق نظرية النظم غير ان الزمخشري قد سبقه الى هذه المهمة الجليلة... غير ان ذلك لم يمنعه ان يبذل جهده كي يقف وقفات بيانية رائعة في هذا الاتجاه دلت على ذوقه الادبي البارع وتحليله البياني الرائع.[٣] وان الشيء الجديد الذي جاء به الرازي هو اهتمامه ترتيب الآيات وتحليلها باسلوب بياني متوصلاً الى الاعجاز عن هذه القضية فهو يقول في معرض حديثه من هذا الاهتمام ومن تأمل في لطاف نظم هذه السور وفي بدائع ترتيبها علم ان القرآن كما هو معجز بحسب فصاحة الفاظه وشرف معانيه، فهو ايضاً معجز بحسب ترتيب آياته.. الا اني رايت جمهور المفسرين معرضين عن هذه اللطائف غير منتبهين لهذه الامور.[٤]فهذا الاهتمام الواضح البين لترتيب الآيات واهتمامه ايضاً بالكلمات، مثال ذلك قوله تعالى: (مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ).[٥] فيقول اشارة الى ثلاثة اشياء وذكره في ترتيب في غاية الحسن، وذلك بان الكتاب السماوي ينزل أولاً، ثم يحصل في عقل النبي فهم ذلك الكتاب واليه الاشارة بالحكم فان أهل التفسير اتفقوا على ان هذا الحكم هو العلم قال تعالى: (وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ

(١) فصلت/١١

(٢) الكشاف ج٣/٣٨٥ .

(٣) الرزاي مفسراً /٢٣١ ينظر تطور تفسير القرآن قراءة جديدة/٧٨

(٤) مفاتيح الغيب ج٢/١٧٥ ينظر تطور تفسير القرآ، قراءة جديدة/٧٨

(٥) ال عمران/٧٩

صَبِيّاً)[١] يعنى العلم والفهم ثم اذا حصل فهم فهم الكتاب فحينئذ يبلغ الى الخلق، وهو النبوة، فما أحسن هذا الترتيب.[٢]والخلاصة ان الامام الرازي اكمل ما بدأه الزمخشري وتطرق الى مسائل لم يذكرها صاحب الكشاف اعانته عقليته الكبيرة وذوقه الادبي والبلاغي حيث شارك في دراسات الاعجاز البيانية على اسس رصينة ودافع عن نظم القرآن أمام مطاعم الملاحده في عصره.[٣]وان ما كتبه الاستاذ محمد رجب البيومي والدكتور شوقي ضيف في عدم وجود لمسات بيانية واضحة في تفسيره هذا من الحيف لانه من يقرأ تفسيره بجد لمسات بيانية كثيرة.

والرازي والزمخشري يكونان هما خاتمة مرحلة في التفسير البياني نعتدها بداية مرحلة في التفسير الحديث والذين جاءوا من بعدهما لم يخرجوا تلك الدراسات الجمالية للقرآن الكريم، بل على العكس أغرقوها بالتعقيد والجدل والفلسفة وعلم الكلام فزادوهما تعقيداً فكان ابتعادهم عن دراسة الادب والذوق البياني واستغراقهم في المنطق أدى إلى جمود الحركة البيانية في تفسير القرآن الكريم حتى اطلالة القرن الرابع عشر ليتزعم علماء الفكر والاصلاح هذه الدعوة. وهذا الجانب من التفسير كان منطلق الاستاذ محمد عبده ومدرسته التفسيرية البيانية وتأجيل المنهج البياني وتطبيقه.هذه مرحلة تتبع المنهج البياني من عصر النبوة المباركة وصولاً للعصر الحديث باختصار، لذلك اتجه المفسرون في العصر الحديث بالتفسير اتجاهات حديثة الغاية منها فهم النص القرآني وبيان نضارته وسداد احكامه وايضاح مبادئه واشاعة يسره وهدايته للناس جميعاً.

الخاتمة :

وبعد هذا التجوال السريع مع التفسير البياني للقرآن الكريم منذ نشأته الى العصر الحديث حيث اطلعنا وتعرفنا الى كبار من فسروا القرأن بيانياً مع بعض الشواهد من تفسيراتهم التي سمحت بها هذه الوريقات من البحث . ندرك هنا ان المفسرين أهتموا بالدراسات البيانية لما

(١) مريم/١٢

(٢) مفاتيح الغيب ج١١٨/٨ ينظر تطور تفسير القرآن قراءة جديدة/٧٩

(٣) تطور تفسير القرآن قراءة عصرية/٧٩

لها من اظهار لبلاغة القران واعجازه وجميل نظمه وبدائع ترتيبه ، والمدرسة الحديثة في التفسير البياني نراها أهتمت بالعقل ووظفته من خلال التفسير في حل المشكلات الاجتماعية التي كانت قائمة آنذاك وضمن ما تتطلبه مرحلة كل عصر ، إلا اننا من خلال بحثنا وجدنا أنه لم يكن هناك تفسيراً كاملاً للقرأن الكريم لأصحاب المدرسة البيانية بل هي موضوعات متفرقة أو سور قصار أو أجزاء من القرآن امتزت بالقصر لما لها من تأثير في الايقاع واللفظ والنغم والسياق ، فقد كان المفسرين البيانيين ينظرون في القرآن الى أساس وحدة الموضوع في الاية .

هذا ونرجو أن نكون قد وفقنا في بيان صورة واضحة وصغيرة عن المنهج البياني في تفسير القرآن .

المصادر :

١ – القرآن الكريم

٢ – أثر القرآن في تطوير النقد العربي الى آخر القرن الرابع الهجري / د.محمد زغلول سلام – دار المعارف – مصر ط ١ – ١٩٥٢ .

٣ – أعلام العرب – دار النصر للطباعة – مصر – ١٩٦٩ .

٤ – أصول البيان العربي – رؤيا بلاغية معاصرة ، محمد حسين الصغير ،دار الشؤون الثقافية – بغداد ، ط ١ / ١٩٨٦ .

٥ – التفسير – نشأته وتدرجه وتطوره ، البارون كاراده فو – تعليق : أمين الخولي ، دار الكتاب اللبناني – ط١ – ١٩٨٢ .

٦ – الاتقان في علوم القرآن ، جلال الدين السيوطي / مطبعة مصطفى البابي الحلبي / ط ٣ – ١٣٧٠ هـ .

٧ – التفسير ماهيته وضوابطه .

٨ – البلاغة تطور وتأريخ / د. شوقي ظيف – ط / ٣٢ دائرة المعارف المصرية ١٩٧٢ .

٩ – الكشاف – عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل ، جار الله الزمخشري – مكتبة مصطفى البابي الحلبي د . ت .

١٠ – الكليات – ابي البقاء ايوب الكفوي – مطابع الهيئة المصرية للكتب – ط١ – ١٩٦٢ .

١١ – الرازي – د . محسن عبد الحميد – دار الحرية للطباعة – بغداد ١٩٦٢ .
١٢ – الفروق اللغوية – ابي الهلال العسكري – مكتبة القدس – نشوى حسام الدين القدسي – مطبعة القاهرة بدون تاريخ .
١٣ – القاموس المحيط – مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز ابادي – المتوفي ٨١٧ هـ – تحقيق مكتبة التراث ، ط٢ ١٩٨٧ ن مؤسسة الرسالة بيروت .
١٤ – المفردات في غريب القرآن
١٥ – السيرة النبوية/ لابن هشام الانصاري/ط٣/مطابع دار الكتب العربي/ بيروت ١٩٧٣.
١٦ – المنهج البياني في تفسير القرآن في العصر الحديث – اطروحة ماجستير للطالب (عقيد خالد حمودي) جامعة بغداد / كلية التربية – ابن رشد ١٩٩٩ .
١٧ – تطور تفسير القرآن الكريم – د. محسن عبد الحميد / جامعة بغداد – ١٩٩٣ .
١٨ – تفسير البرهان .
١٩ – تاريخ التفسير – العلامة قاسم القيس – مطبعة المجمع العلمي العراقي – ١٣٨٥ هـ .
٢٠ – تفسير القرآن العظيم – اسماعيل بن عمر بن كثير عماد الدين ابو الفداء – دار الفكر بيروت د . ت .
٢١ – دلائل الاعجاز / الجرجاني/ط٥/ تحقيق الشيخ محمد رشيد رضا/ مطبعة المنار.
٢٢ – روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني – ابو الثناء محمد الالوسي البغدادي الحسيني – مطابع دار الفكر – بيروت ١٩٧٨ .
٢٤ – رسالة التوحيد/ محمد عبده/ مطابع الهيئة المصرية للكتب/ مصر–القاهرة ١٩٥٧ ط٢.
٢٥ – رسائل الجاحظ لابي عثمان بحر بن عمرو الجاحظ – نشرها السندوبي ط١ / ١٩٨٣ .
٢٦ – صحيح البخاري/ط٢/مطابع دار المعرفة/مصر/,١٩٦٨
٢٧ – كشاف أصطلاحات الفنون – محمد علي بن علي التهاوني الفاروقي – مطبعة أقدام استانبول ١٣١٧ هـ .

٢٩ – كشف الظنون عن اسامي الكتب والفنون – حاجي خليفة مصطفى بن عبد الله – مطبعة وكالة المعارف ، مصر ١٩٤٣ – ١٩٦٦ .
٣٠ – خطوات التفسير البياني – محمد رجب البيومي – مطابع الشركة المصرية للطباعة والنشر – ط ١ – ١٩٧١ .
٣١ – الصحاح – اسماعيل بن حماد الجوهري – تحقيق احمد عبد الغفور العطار – مطابع دار الكتاب العربي – مصر ١٩٥٦ .
٣٢ – مقاييس اللغة – ابو الحسين احمد بن فارس بن زكريا – تحقيق : عبد السلام محمد هارون – دار الفكر ، بيروت .
٣٣ – مقدمة ابن خلدون/ عبد الرحمن بن محمد/ تحقيق د.علي عبد الواحد/ مطبعة لجنة التأليف والبيان العربي/ط١/مصر/١٣٧٩هـ – ١٩٦٠م.
٣٤ – مناهج تجديد في النحو والبلاغة والادب / ابن الخوالي/ دائرة المعارف/مصر/ط١/١٩٥٣.
٣٥ – من اسرار العربية في البيان القرآني/ د. بنت الشاطي عائشة عبد الرحمن/ ١٩٧٢/مطبعة دار الاحد البحري اخوان/ بيروت/ محاضرة القيت في جامعة بيروت ١٩٧٢/٣/٢٧.
٣٦ – مقدمة في اصول التفسير للامام : تقي الدين احمد بن عبد الحليم (ابن تيمية) – تحقيق (د . عدنان زرزور) – دار القران الكريم – بيروت – ط ٣ – ١٩٧٩ .
٣٧ – مفاتيح الغيب/ الرازي/ مطابع دار الفكر/ بيروت/١٩٧٥/ط٢.